

لوحات جمالية من القرآن الكريم



يجمع القرآن الكريم بين جمال اللفظ وجلال المعنى، فلا يطغى أحدهما على الآخر، وفي ذلك يقول الباقلاني: "فإذا برع اللفظ في المعنى البارع كان أطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر، ثمّ إذا وجدت الألفاظ وفق المباني والمعاني وفقها... فالبراعة أظهر، والفصاحة أتم".

ويقول أبو سليمان الخطابي (ت 386هـ) في ربط جمال لفظ القرآن في نظمه بمعناه: "واعلم أنّ القرآن إنما صار معجزاً؛ لأنّه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمّناً أصحّ المعاني؛ من توحيد له، عزّت قدرته، وتترّبه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته،... وإرشاد إلى محاسن الأخلاق... واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه،... والمعلوم أنّ الإتيان بهذه الأمور، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر...".

نتأمل في هذا المثل القرآني في سياق التوحيد: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) (الحج/ 73)، نجد في الآية السخرية والتهكم لعدم قدرتهم على خلق

الذباب، ومن جهة أخرى نجد العجز عن رد هذا المخلوق الضعيف، وذلك في قوله: (يسلبهم) و(لا يستنقذوه)، إنَّه البلاغة في التعبير.

وأخيراً، نحاول عرض لوحتين من القرآن الكريم، ونحلِّلهما مبينين تسلسلهما وتتابعهما، فالصورة الأولى من مشاهد يوم القيامة للجنة، والثانية للنار.

أ) من مشاهد الجنة:

في لمحة خاطفة بعد الموت، ينفخ في الصور، فإذا الناس يخرجون من قبورهم، مسرعين لنداء المولى عزَّ وجلَّ للمحاكمة: (وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْدَسِلُونَ) (يس/ 51)، وتوضع الموازين الدقيقة للأعمال وإن كانت مثقال حبة، (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَدِنَومَ الْقَيَّامَةِ فَلَا تَطْغَلَامُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِنَ الظَّالِمِينَ مَا لَا حِصَّةَ مِنْهُ فَذُرْ دَلِيلًا تَيِّدًا بِهِمَا وَكَفَىٰ بِنَدَا حَاسِبِينَ) (الأنبياء/ 47).

وتتم المحاكمة فيذهب كل فريق إلى مقره: المؤمن إلى الجنة، والكافر إلى النار. والجنة هي المقر النهائي الذي أعدّه الله للمؤمنين يوم القيامة (لا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابُ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ) (الغاشية/ 11-16)، أثاث رائع، ومتاع جميل، هل يتولى المؤمنون تجهيز الأثاث؟ كلا! وماذا يفعلون إذن؟ يجلسون فقط تعلوهم (عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُصْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا) (الإنسان/ 21)، أين؟ (عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُوعَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَىٰهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمٍ طَيِّرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللَّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الواقعة/ 15-24)، تصوير وتجسيم بديع ترى فيه الأمور ماثلة أمامك، وتشوق نفسك إلى التمتع بهذه النعم، صورة مليئة بالنشاط والحيوية والحركة الدائبة: طواف، وذهاب وإياب، وحديث وكلام، وترى الكؤوس من المعين تلمع بصفائها وصفاء ما فيها من شراب.

ب) من مشاهد النار:

ففي حين يتمتع أهل الجنة بنعيمها، يتعذب أهل النار بعذابها (تَمْلَأُ نَارًا حَامِيَةً) (الغاشية/ 4)، وكيف إذا احترقت جلودهم وأصبح لا حس لها؟! (إِنَّ السَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلاًّ مَّا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلِّ لَدْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا) (النساء/ 56)، ماذا يقولون وهم داخل النار؟ (وَهُمْ يَمْطَرُونَ فِيهَا رِيًّا أَوْ جُرْجُنًا نَعْمَلُ صَالِحًا غَيْرَ السَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ... (فاطر/ 37)، وينلاومون - أيضاً - .. فَقَالَ الصُّعْفَاءُ

لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنْ نَزَّاسًا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَتَتْكُمْ مُغْنُونَ عَذَابًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزَعْنَا أَمْ مَصِيرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْيَصٍ (إبراهيم/ 21)، وبعضهم يلوم الشيطان فيرد عليهم قائلاً: (.. فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَتَتْكُمْ بِمُصْرِخِيَّ...) (إبراهيم/ 22).

هل لهم فيها من طعام أو شراب أو ظل مثل أهل الجنة في الجنة؟ نعم، ولكن طعامهم لا يسمن ولا يغني من جوع، وشرابهم لا يروي غليلاً، وظلهم لا يقي من حر: (إِنَّ شَجَرَةَ الزَّيْتُونِ * طَعَامٌ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ) (الدخان/ 43-46)، (وَطِلَّ مِنْ يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ) (الواقعة/ 43-44)، والماء ماذا يفعل بهم؟ (.. وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ) (محمد/ 15)، تصوير مفصل لحال أهل النار، يُدخلُ في النفس الرعب والخوف، وكأنَّ الشخص يشاهدها رأي العين، ويرى ما يقاسي أهل النار فيها.

المصدر: كتاب إسلامية المعرفة